تاريخ التفكير الجمالي

قسم الفلسفة_ السنة الثانية د. بشرى عباس

التفكير الجمالي في العصر الهيلينستي و الروماني

- ***المحاضرة الثانية***

العصر الروماني : أفلوطين (٢٠٤_٢٧٠) م

هو أهم شخصية فكرية في العصر الروماني و زعيم الأفلاطونية المحدثة و قد جاء فكره الفلسفي و الجمالي انعكاساً لمآسي و آلام العصر الروماني و تعبيراً صادقاً عن الاتجاه التلفيقي الذي ساد بالعصر الهيلينستي و استمر بالعصر الروماني. لقد مثل فكر أفلوطين المزاوجة بين التيار الروحاني الشرقي الذي يستلهم الأسرار الدينية، و التيارات الغنوصية الصوفية الشرقية السائدة آنذاك و بين مثالية أفلاطون العقلية. و قد بنى أفلوطين فلسفته الجمالية على أساسين في فلسفته الصوفية اللاهوتية:

الأساس الأول: قوله بفيض الموجودات عن الله فالله كقوة يفيض عنه الوجود، و مثل هذا الفيض يكون على سبيل إصدار الشمس للشعاع فشعاعها لا ينقص شيئاً منها، و على هذا الأساس لما كان الله هو الأحد المطلق و هو الموجود و الكامل و الجميل وجوداً و كمالاً و جمالاً مطلقاً، و تفيض عنه الموجودات.

انتقد أفلوطين الرأي القائل: إن الجمال هو التناسب و الاتساق و الانسجام بين الأجزاء، كما أنه لا بد أن تكون أجزاء الجميل جميلة، إذ لا يمكن أن يكون الكل الجميل مركباً من أجزاء قبيحة و لا بد أن يشمل جمال الكل الأجزاء أيضاً. و يؤكد أن الجمال كائن في الفكرة التي يعبر عنها. أو بمعنى آخر: يكون الجمال في الإيحاء الباطني الذي لا يظهر في الحس، و على هذا يكون الوجه جميلاً عندما يظهر فيه جمال النفس، و يتجلى الجمال بالنفس بمقدار تجلي صورة الخير الإلهي فيها، فالرجل البشع و الحي هو أجمل من تمثال رجل جميل. و لهذا قرر أفلوطين أن ما نراه من جمال بالوجود إنما هو قبس و فيض من جمال الألوهية لأنه من الله يصدر الجمال و كل الحقيقة. و عالم الألوهية هو عالم الجمال الخالص الذي يفيض على محبيه جمالاً و يملأهم بالحب. و عالم الجمال هو محل المثل و المعقولات و أما عالم المحسوس فلا توصف موجوداته بالجمال إلا بقدر ما تتلقى من صورة إلهية. فالفنان الحقيقي لا ينسخ عن الطبيعة بل يأخذ صوره و خيالاته من عالم المعقولات، عالم الصورة الكاملة التي بموجبها تشكلت الطبيعة، فالجمال الطبيعي أو الفني يرجع دوماً إلى الصورة العقلية. و الجمال في عالم المعقولات و الصور هو أسمى منه في عالم الطبيعة و الآثار الفنية لأن الجمال يوجد في العلة أعظم منه في المعلول. و جمال الموجودات الحسية

الذي يخاطب الإحساس هو صدى باهت للجمال الخالص. فهناك إذآ نوعان من الجمال: الجمال المحسوس و الجمال الروحاني.

الإنسان يتذوق جمال المحسوسات لأن نفسه في أصلها جميلة و تنتمي إلى عالم المعقول، عالم الصور و الجمال، فطبيعة النفس المعقولة المصورة تجعلها ترتاح للأشياء الجميلة لأنها مصورة، بينما تنفر من الأشياء المادية القبيحة. و القبيح هو كل ما تنقصه الصورة . و أما تذوق النفس للجمال فيبنيه أفلوطين على:

الأساس الثاني: و هو ميله لحذف ثنائية العالم المعقول (الله) الواحد اللامتناهي. و العالم المحسوس (الموجودات) المتكثر المتناهي. بينهما هوة لا تعبر بالمعرفة العقلية، لكنها تعبر بالكشف، بتجربة ذوقية صوفية أساسها الاستبطان، الرجوع لأعماق النفس، ثم تحريرها من شهوات الجسد.

يطرح على هذا الأساس مسألة سمو النفس و تذوقها للجمال الروحاني. فإن تذوق هذا الجمال و هو الحقيقي لا يكون إلا بانتقال من العالم المحسوس إلى العالم المعقول، و هذا الانتقال لا يتحقق إلا بضرب من المعرفة القلبية الذوقية آلته النفس، و هذا التذوق لا يتم إلا عندما تصفو دواخلنا من شوائب المادة و عالمها المحسوس، لأن الآلة التي ندرك بها العالم المعقول، عالم الجمال يجب أن تكون من جنسه، أي نفسآ طاهرة صافية خالصة تحررت من كل ما يظلمها و يحجبها عن رؤية نورالجمال أي تحررت من القبح و الشر فصارت عاقلة جميلة خيرة قادرة على تذوق الجمال و الاتصال بالعالم الإلهي. و لكن هذه النفس لا يملكها إلا القلة القليلة من القديسين و الصوفيين الذين أيدتهم العناية الإلهية بلطفها و نعمتها فصاروا بذلك قادرين على الكشف و رؤية الجمال الحقيقي.

إن النفس الجاهلة القبيحة هي النفس المحجوبة عن هذه الرؤية، النفس يأتيها قبحها عندما تتغير صورتها العاقلة بسبب التصاقها بالمادة و الشهوات، إن قبحها يأتي من كونها ظالمة قلقة مليئة بالأهواء و لا تحب سوى اللذات الرخيصة فلا ترى ما تراه النفوس الأخرى النقية فتكون أشبه بإنسان قد وقع في الوحل و الطين. فجمال النفس و قبحها مرهونان بكونها خيرة و عاقلة أو بعدم كونها ذلك لأنه يعتبر أن القبح هو الشر و الجمال هو الخير و هو بذلك يتتبع خطى أفلاطون فيقول: الجمال و الخير متحدان مثلما الشر و القبح مرتبطان، و الجمال هو الخير. إن أفلوطين إذ يرد الجمال إلى العقل و الخير، يرى أن الموجود الذي تنتفي عنه صفة المعقولية و الخيرية لا يكون جميلآ. و لما كانت الموجودات كلها صدورآ عن الخير المطلق، و تخضع لقوانين العالم المعقول بنسب متفاوتة، فإن كل موجود واقعي يمتلك قدرآ ما من الجمال، و هذا يعني انتفاء القبح المطلق من العالم المحسوس. و حتى يتسنى لنا تذوق الجمال في كل موجود يدعونا أفلوطين إلى أن نتجاوز العالم المحسوس إلى ماوراءه، إلى العالم العقلي و تحرير النفس من الشهوات و من

علائق المادة، و من هنا يكون تذوق الجمال عنده ضرباً من التجربة الصوفية المجاهدة التي تنتصر فيها النفس على ماهو وضيع و دنيء و تتسامى لكي تظفر بجمال العالم الروحاني، إنه ضرب من الصوفية التي توحد بين حقيقة الوجود و الخير و الجمال، فالتذوق الجمالي يتشابه مع التصوف أو ينتهي إليه لأنه كالتصوف ينبني ليس على معرفة عقلية خالصة بل على معرفة ذوقية قلبية، إنه تذوق روحاني يستمد قيمته من كونه رمزاً أو إشارة إلى الحقيقة العقلية.

و سنرى لاحقاً الأثر الذي تركته نظرية الفيض الأفلوطينية على التفكير الفلسفي و الجمالي عند العرب(إخوان الصفا الفارابي ابن سينا) و على الفلسفة المسيحية المدرسية (أوغسطين و الأكويني) .